الفصل السادس

تحت الحصار

«... لو سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً؛ لأنك أنت معي»

- مزامير داود 23

كنت أقلب ببصري أجواء السماء وأنا جالس في الطائرة المروحية التابعة لشركة بلاك ووتر، وبدت الأرض من تحتي كأنها غشاوة متموجة داكنة من رسم متداخل الألوان، وكانت قدماي تضغطان بشدة على جانبي المروحية حيث جلست بمحاذاة المدخل المفتوح في الطائرة المروحية، وتمنيت لو كانت الأحزمة التي تربطني بأرضية الطائرة من النوع الذي يربط الجسم كاملاً. وحين نظرت إلى الأسفل، رأيت مدينة أثرية تحت الحصار، تبرز منها الأبراج والقلاع المحصنة ذات الشرفات. ويبدأ العالم الحديث في هذه المدينة من النقطة التي يلتف عندها السديم البني حول المباني المربعة التي تتألف منها بقية المدينة.

وحين بدأ الطيار بالانخفاض كي نتمكن من النظر إلى المدينة عن قرب، برزت أمامنا المباني الضخمة التي شيدت في عهد صدام حسين تتخلل الفضاء المغبر، شامخة فوق السديم البني الذي يلف المنازل والمتاجر ذات المنظر الرتيب الممل. وفي حين كان الهواء يبدو لطيفاً والسماء هادئة من ارتفاع ألف قدم في السماء، إلا أن مجرد الهبوط من هذا الارتفاع يدخلنا في دائرة حرب المدن في القرن الحادي والعشرين. لقد حوّلت قوات الاحتلال مباني صدام حسين ذات التصميم المعماري الباذخ إلى متاهة قبيحة مرقعة بالمنازل المحاطة بأكياس الرمال، والأبنية البيض المقطورة، والجدران المضلعة، والتلال الترابية، والدبابات، والسيارات ذات الدفع الرباعي، والعربات العسكرية. وبالطيران فوق المناطق السكنية يظهر المشهد العام للسطوح بجلاء حياة المشاة وسط ساحة

الحــرب. وحين يممت بصري فوق سطوح المنازل والشوارع، ظهرت أمامي أنماط جديدة مــن الحياة. ويمكنني في الحال رؤية الازدحام المــروري، والتحركات العسكرية، والأفراد العاديــين وهم يسيرون في الحقــول والأزقة. ويحرص الطيارون علــى عدم الطيران على ارتفاع يقل عن ثلاثين متراً – لا لأنها أفضل مسافة لرؤية المدينة عن قرب وحسب، بل لأن الطــيران المنخفض يقلل من الوقت الذي يحتاجه أفراد المقاومة للتصويب وإطلاق نيران أسلحــة آر بي جي عليهم. كمــا أنهم يطيرون بأسلوب متعــرج إلى الأمام والخلف تحسباً مــن قيام أحــد بإطلاق النار عليهم. ويقول الطيار ستيف: «إننا لا نتعرض للإصابة كثيراً ولكننا ندخل في أوضاع جنونية». ويقوم ستيف برسم صورة ساخرة لطائر باللون الأبيض علــى نافــذة مروحيته في كل مرة يتعرضــون فيها للإصابة بالنيران، كمــا أن البلاستيك اللاصق يغطي ثلاثة شقوق عميقة في جسم الطائرة من أثر الشظايا.

وعنــد الوصول إلى نقطة محــددة، يقوم قائد الطائرة المروحيــة بتوجيه الطائرة من الأرضــ الصحراوية القاحلة نحو السماء الزرقــاء، ضاغطاً بجسمي إلى أرضية الطائرة الملمعة المصنوعة من الألمنيوم. ومع التفاف الطائرة، كان كل ما يمكنني رؤيته هو السماء والشمــس، ثم شعــرت بانعدام الوزن وتلفظــت ببعض العبارات غــير المفهومة التي تشبه الدعاء، وانتابني شعور بالحاجة إلى التقيؤ.

ثم تحولــت الطائرة الصغيرة في تسارع نحو الأسفل باتجاه المياه الموحلة المكدرة لنهر دجلــة. فاستسلمــت للقدر ورحت أفكــر في النهاية الحزينــة لآخر نفــس سأستنشقه من تلــك السوائل المنتنة، غــير أن الطيارين الماهرين قاما في اللحظــة الأخيرة بتعديل مسار الطائــرة، وحين فتحت عيني، رأيت أنّنا نطير بمحاذاة النهر على ارتفاع عدة أقدام فوق الشريان البني المتعرج الموحل. وجاء صوت الطيار عبر سماعة الأذن طالباً مني أن أراقب الماء، فهي المكان الذي يمكنهم أن يشاهدوا منه جثث القتلى التي تطوف فوق القناة ذات الميــاه العكــرة. ويبــدو أن الليلة الفائتة لم تشهــد الكثير من الحركــة؛ إذا لا وجود للجثث اليوم. وبنبرة واضحة متيقنة أكثر من واعية على طريقة الدليل السياحي، أشار الطياران إلى الجهات التي تأتي منها قذائف المدفعية التي تضرب المنطقة الخضراء. ثم أشارا إلى

الجانب الآخر كي أنظر إلى المكان الذي وقع فيه الهجوم الانتحاري الذي وقع بالأمس. ثم انتقلت الطائرة إلى التفاف آخر مثير للاستفراغ، وتوجهنا بسرعة كبيرة بمحاذاة الشارع الرئيس باتجاه المنطقة الخضراء.

حلقنا فوق ساحة العروض العسكرية التي يتخللها نصب ليد تشير بعلامة النصر. وهي نصب كبير ليدين منحوتتين فوق تمثال لصدام حسين وهو يحمل سيفين يشكلان قوساً صنع من حديد أسلحة العراقيين الذين قضوا نحبهم في الحرب العراقية الإيرانية. ويشتهر الطيارون الذين يعملون في شركة بلاك ووتر بالطيران تحت هذين السيفين، ولكنهما في هذه المرة، ورأفة بي، تمالكا نفسيهما وأحجما عن فعل تلك المناورة. وبعد ميلان الطائرة إلى الأعلى ميلاناً يلوي الأمعاء، قطعنا الخط الذي يفصل بين المنطقة الخضراء عن العالم الخارجي. وفي الوقت الذي توجهنا فيه إلى البوابة رقم 12، انخفضت الطائرة المروحية قريباً من سطوح المنازل لدرجة أنني استطعت رؤية الذعر والخوف المرتسم على وجه رجل كان يغسل ملابسه حين نظر إلى الأعلى ليرى طائرة مروحية تتجه صوبه. ومرة أخرى، امتحن الطياران قدرة معدتي على التحمل؛ ثم دخلنا بين الجدران الإسمنتية المسلحة المحيطة بالقصر. وهبطت الطائرة بانسياب سلس، وانتهت الرحلة. وشعرت بالراحة لدى رؤيتي الجدران الإسمنتية المسلحة المقاومة لقذائف المدفعية.

يقيم طيارو بلاك ووتر قريباً من مهبط الطائرات القريب من القصر الرئاسي في المنطقة الخضراء. ومهبط الطائرات هو منطقة واسعة فارغة معبدة تحيط بها الجدران المسلحة، وتقع في الساحة الرئيسة للقصر– وهي هدف مفضل للقصف المدفعي. وتشبه المنطقة حديقة فظيعة للنحت الحديث.

وفي داخل المستودع الذي يؤوي ثلاث طائرات مروحية تشبه في شكلها دمعة العين، كانت موسيقا الريف الأمريكي المنبعثة من أحد المسجلات تتردد بصوت مرتفع. وكانت طائرتان مروحيتان أخريان مدهونتان حديثاً باللونين الرمادي والأسود رابضتين في المستودع، في حين كانت الثالثة تخضع لفحص ميكانيكي بعد أن أخرج منها المحرك ولم يبق منها سوى الهيكل. دخلت طائرة هيوز 500 الصغيرة (وتنتجها في الوقت الحالي

شركة بوينغ باسم إم دي 550) الخدمة عام 1960، ثم سجلت هذه الطائرة المروحية الصغيرة سلسلة مدهشة من الأرقام القياسية لكونها أسرعَ طائرة عمودية، وأسرع في معدل التسلق، والطائرة الأعلى ارتفاعاً في الطيران. فهي طائرة سريعة ومرنة الحركة، وهي الشبيه المعادل للسيارات الرياضية في عالم الطائرات المروحية. ويمكن للمؤخرة أن تحمل شخصين، غير أن بلاك ووتر عدلت هذا النموذج ليحمل اثنين من القناصة أو الرماة المزودين بالبنادق الآلية الرشاشة التي تتدلى من إطار البوابة. وهذه الطائرات ليس لها أبواب؛ لذلك يجلس القناصة مربوطين بالأحزمة بجسم الطائرة وتكون أقدامهما مثبتة على جانبي الطائرة. وتستخدم القوات الخاصة هذه الطائرات في عمليات إقحام وإنزال المقاتلين من قوات الدلتا عن طريق القفز السريع، أو التدلي بالحبل، أو الكبل. وتستخدم بلاك ووتر هذه الطائرات في عمليات الاستطلاع، وجمع المعلومات، وتقديم الإسناد والدعم الناري للمتعاقدين الأمنيين العاملين معها.

ولا تقتصر مهمة قسم بلاك ووتر للطيران -وهو قسم واحد من بين أقسام الشركة الخمسة- على تقديم الدعم الجوي باستخدام الطائرات المروحية الصغيرة؛ بل يشمل أيضاً عمليات النقل والإمداد للمتعاقدين العاملين فيها في العراق وأفغانستان مستخدمين طائرة كاسا 212 ذات المحركين. ويقدم طيارو بلاك ووتر الذين يقودون الطائرات المروحية تغطية جوية لفريق الحراسة الشخصي لكل من بريمر ونيغروبونتي، أما الآن فهم يقدمون دعماً لقوافل فرق المهبة. وحين يتعرض فريق المهبة إلى كمين، تظهر الطائرات المروحية كملائكة الحراسة، محلقة في السماء كالفرسان الطائرة على ارتفاع أمتار فوق القافلة مظهرة استعراضاً باهراً للقوة لردع أي شخص يفكر في الهجوم على القافلة، وإطلاق النار عليهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

ووصف ما يقومون به «بالطيران» هو وصف غير دقيق لما يفعلونه؛ لأن هؤلاء الطيارين الذين سبق لهم أن خدموا في فرقة المظليين المئة وستين هم أسرع الطيارين طيراناً، وأخفضهم تحليقاً، وأشدهم إقداماً في العراق. ويوضّح ستيف قائلاً: «ينعى علينا بعض الناس طيراننا العشوائي وتحليقنا على ارتفاع منخفض قائلين بأن الطيران بتلك الطريقة

يمكـن أن يعرضنا للسقوط والارتطام بالأرض ... إلا أن هذه هي الطريقة الآمن للطيران في هـذه المنطقـة. فكلما كنت منخفضـاً، كان الوقت المتاح للمقاومـة أقصر في اكتشافك وتصويـب أسلحتهم نحوك، وكانت التغطيـة المتوافرة لك من المباني والأشجار أكبر. إننا نخرج في دورياتنا الجوية، وإذا شاهدنا شيئاً قد تغير مكانه، أو لم يكن موجوداً من قبل، فإننا نلاحظه ونرى إن طرأ تغيير عليه أم لا، أو إن كان يحتمل أن يكون ذلك الشيء عبوة ناسفة، فإننا نطلق عليه النار».

وفي أثناء مسيرنا إلى مسكنهما المزود بمكيف هواء بارد، مررنا بلافتة تقول: «معسكر مؤخـرة القـرد- تباً لكـم ... لدينا ما يكفي مـن الأصدقاء». وقد جاءت عبـارة «مؤخرة القـرد» حين أطلق أحد أفـراد الحرس الشخصي لبول بريمر ذلـك الوصف على طياري بـلاك ووتر الذيـن يقدمون الإسناد الجـوي، ووجه دلالتها يشير إلى قصـر الوقت الذي يجلسـون فيه على مؤخراتهم قبـل تحليقهم في الأجواء. تأمل ستيـف هذه اللافتة وقال، «حـين أتينـا إلى هنا أول مرة، كان لكل شخص يسكن في المعسكر لقب ما، لذلك قلنا إننا بحاجة إلى لافتة». ذكر ذلك بنكتة سكان تكساس.

ظهرت على الحائـط الطويل داخل المبنى الجاهز خريطة لبغداد ملتقطة من الأقمار الصناعيـة، وإلى جانبهـا مجموعـة متنوعة من الخرائـط الصغيرة والمـلازم. ويقضي الطيارون وقتهم إما في الطيران أو في النوم، أو في الجلوس في غرفة الاستراحة الصغيرة في انتظـار نـداء الانطـلاق. وتملأ المـكان رائحة القهوة المـرة ورائحة غـاز العادم الذي ينبعـث من محـركات الطائرات المروحيـة. وفي البدايـة، جلس الطيـارون المدربون على توخـي الحيطة والحذر في الجانب الأمني من العمليـات التي يقومون بها، جلسوا تجاهي محملقـين بي بصمت. وحين لا يجدي الصمت نفعـاً، يقومون بالإجابة عن أسئلتي بلهجة مختصـرة واضحة، أما الرماة فكانوا يمضغون التبغ ولم يتفوهوا بكلمة واحدة، وقد بدت عليهم ملامح عدم الارتياح.

أراني ستيف المـكان الذي اخترقته رصاصة من حذائه ذي اللون الحنطي متجهة إلى الأعلـى؛ إذ تعرضـ لإطلاق النـار في قدمه قبل بضعـة أيام حين كان يحلـق كعادته على

ارتفاع ثلاثين متراً عن سطح الأرض فوق بغداد. ويتحدث ستيف بلهجة أهالي تكساس، وتبدو عليه رشاقة الرياضيين، ويعصب رأسه الأصلع بمنديل مزين بالرسوم. واستخدم أصبعه متتبعاً اتجاه الرصاصة من كاحله في حين كان الطيارون الآخرون يهزون رؤوسهم. وقال أحدهم: «إنه يتباهى» ثم ضحك الجميع.

تلقى ستيف الرصاصة في قدمه في أثناء قيامه برحلة عادية في يوم عادي. ومن العجيب أنه في أثناء الطلعات الجوية الأكثر خطورة في خدمته في العراق - حين كان ينقل الإمدادات والجرحى من ساحة القتال في النجف - أكمل مهماته تلك دون أي إصابة.

أصبحت الحجة التي تقول: إن المتعاقدين الأمنيين هم من المدنيين لأنهم لا يشاركون في القتال محل نظر ونقاش بعد أسابيع فقط من حادثة وقعت في 31 آذار/ مارس في الفلوجة، وبعد أن هاجمت ميليشيات الجيش المهدي التابعة لمقتدى الصدر حراساً من شركة بلاك ووتر كانوا يقومون بحراسة مبنى تابع لسلطة التحالف المؤقتة في النجف. لم ترسل القوات الأمريكية أي تعزيزات عسكرية، لذلك لم يكن أمام المتعاقدين الأمنيين من خيار سوى الرد بقوة على الهجوم والدخول في معركة حامية استمرت 24 ساعة مع المقاومة. وبعد أن أوشكت الذخيرة على النفاد من المجمع، طار ستيف من بغداد حاملاً الإمدادات إلى زملائه، وقفل راجعاً ومعه أحد الجرحى لنقله إلى المستشفى. وقد تلقى على جهوده هذه عقاباً قاسياً. وحين سألت ستيف إن كان السبب الذي أوقعه في ورطة جراء هذه المهمة هو أنه يفترض فيه أن يكون طياراً مدنياً وأنه ينبغي ألا يشارك في الأعمال القتالية، وقبل أن أنهي سؤالي، قاطعنا طيار آخر اسمه دان، وكان يحافظ على صمته حتى تلك اللحظة قائلاً: «إننا أمريكيون أولاً، متعاقدون أمنيون ثانياً».

النجف

في خضم الصراع على القيادة السياسية الشيعية في عهد ما بعد الاحتلال، برز رجل دين ثوري إلى موقع الصدارة هو مقتدى الصدر ذو الثلاثين عاماً الذي يتمتع بنسب ممتد في القيادة الدينية. فقد كان أبوه وجدّه يحتلان مكانة مرموقة في أوساط شيعة العراق. وتقلد جدّه منصب رئيس الوزراء، وعد أبوه شهيداً بعد أن دبّر صدام حسين

عمليــة اغتيــال له عام 1999. ولم يكن مقتدى يملك السمعة، ولا التعليم، ولا الدعم الذي حــازه أبوه أو جدّه من قبله، غير أنه بعد إزالــة الصور المشوهة لصدام حسين من شوارع بغـداد ووضـع صور والده مكانها، أصبـح واضحاً أن مقتـدى كان يستغل الفراغ الحاصل لمصلحتـه؛ إذ عمل علـى حشد الدعم عن طريـق استغلال السوابـق التاريخية، والحمى الدينية (...).

بــاءت محاولات تحجيــم الصدر وتحييده مــن الساحــة العامة بالفشــل؛ لأن رسالته المتطرفــة المناهضــة للأمريكيــين كانــت تلقــى الاستحســان والقبــول في مجتمــع يشعر بالاضطهــاد والمعاناة على يد المستعمر الأجنبي المعتدي. فبدأ مقتدى وجيشه الذي يتميز أفــراده بلبس القمصان السوداء بالضغط على المحتــل الأجنبي، مما أضفى عنصراً من المهابة والشهرة على رجل لم يكن يعد مرجعاً دينياً حصيفاً أو قائداً سياسياً لامعاً. ولكي يعزز موقعه في السلطة، قام الصدر بتنظيم المظاهرات الحاشدة، وإلقاء الخطب الرنانة، والبدء بحملة اغتيالات بهدف إزالة منافسيه المعتدلين.

وفي محاولتهــا السيطــرة علــى الصدر، قامــت قوات التحالــف والسلطــات العراقية بإصدار مذكرة سرّية للقبض عليه، وبدأت القوات العراقية وقوات التحالف بإلقاء القبض علــى عدد من رفاقه، ووجهــت إليهم تهماً بالتورط في عملية اغتيــال عبد المجيد الخوئي أحــد رجل الدين المنافسين للصــدر في نيسان/ إبريل من عــام 2003. ولمواجهة الهجوم الــذي يشنه أعداؤه عليه، جهــد مقتدى الصدر في استثارة أتباعــه إلى حالة من الجنون المستعر.

وشهــد ربيع عــام 2004، مظاهــرات حاشدة غاضبــة على طول المــدن الجنوبية وفي التجمعــات السكانية الفقــيرة للشيعة في بغــداد، وازدادت وتيرة الهجمــات العنيفة التي يشنهــا جيش المهــدي التابع للصدر. وكان توقيت الصدر في شــن هذه الهجمات متزامناً مــع تصاعــد المقاومة السنية في المثلث السنــي. وفي 28 آذار/ مارس، أصدر بريمر قراراً بإغــلاق صحيفة الحــوزة التابعة للصدر بحجة التحريض علــى الإرهاب. وفي الثالث من إبريــل، ألقي القبض علــى أحد كبار معاوني الصدر بتهمة تورطه في اغتيال الخوئي. وقد

كان الهدف من هذين القرارين هو إضعاف الصدر، إلا أنهما في الواقع رفعا من منزلته؛ لأنه بدا واضحاً أن الأمريكيين يستهدفونه للقضاء عليه. استغل الصدر الهجوم الموجه إليه، وخرج آلاف الشيعة إلى الشوارع تعبيراً عن دعمهم له.

أصبحت المظاهرات الاحتجاجية مشهداً شائعاً معتاداً إلى درجة أن تجمع العراقيين خارج معسكر الغولف في النجف صبيحة الرابع من نيسان/ إبريل لم يجلب سوى قليل من الانتباه في البداية. وتظهر الصور التي التقطت لهذا الحشد بضع مئات من الناس يتجمهرون خارج البوابات، وارتفعت فوق رؤوسهم أعلام ذات ألوان مختلفة تمثل القبائل الشيعية. وفي حين كان أكثر المتظاهرين من ممثلي العشائر الشيعية، كانت حفنة من الأشخاص الذين ظهروا في خلفية الصورة يلبسون الزي الأسود، وهي العلامة المميزة لعناصر جيش المهدي.

كان معسكر الغولف في ذلك الوقت يضم مركزاً أمنياً عراقياً، وكتيبة تضم جنوداً من إسبانية، والسلفادور، وبضعة عناصر من الشرطة العسكرية الأمريكية، بالإضافة إلى فرع لسلطة التحالف المؤقتة في النجف. ويتمتع المقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة في بغداد بتحصين وحماية يتولاها متعاقدون أمنيون يعملون بموجب قواعد اشتباك مرنة من وضع الجنرال آنثوني هنتر تشوات. وهو ضابط متقاعد من الجيش البريطاني برتبة فريق، وهو نفسه من الجنود المرتزقة الذين عملوا في الفيلق الفرنسي الأجنبي. وعلى الرغم من تلك القواعد التي تسمح للمتعاقد الأمني أن يرد على إطلاق النار بالمثل إذا تعرض للهجوم، إلا أنه لا توجد أي قواعد قانونية أخرى توضح ما ينبغي للمتعاقد فعله أو عدم فعله إذا وجد نفسه في وسط المعركة والاشتباك المسلح.

كانت شركة بلاك ووتر مكلفة بحماية منشآت سلطة التحالف المؤقتة في النجف بموجب العقود التي أبرمتها مع الحكومة الأمريكية، وكان لديها ثمانية متعاقدين أغلبهم جنود سابقون من قوات سيل، يتمركزون في الموقع لحماية المقر الرئيس للسلطة في النجف. ولم يكن قد مر أسبوع على مشاهدة هؤلاء المتعاقدين للكمين العنيف الذي تعرض له زملاؤهم في الفلوجة. لذلك، وحين سمعت أصوات إطلاق النار من بين صفوف

المتظاهريـن خارج البوابـة، كان المتعاقـدون التابعون لبلاك ووتر جاهزيـن «للمواجهة والثأر» على حد تعبير أحدهم.

وكان لـوني يونغ جندي المارينز البالـغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، المكلف بإدارة نظـام الاتصــالات في المجمع قد اجتاز المتظاهرين حين وصل في ذلك الصباح إلى مجمع مبـاني سلطـة التحالف المؤقتة، وكان قد قـدم إلى معسكر الغولف ومعـه جندي آخر من المارينـز وعدد مـن المتعاقدين المدنيين لتحديث أجهزة الاتصــالات في القاعدة. وتحوّلت المهمة السهلة التي لا يتطلب إنجازها أكثر من نصف يوم من العمل من خبير الاتصالات إلى يوم من القتال العنيف.

ويتذكـر يونـغ كما ذكر في روايتـه للحدث لصحيفـة فيرجينيا بايلوت أنـه سمع قبيل الظهـيرة صوت طلقات كلاشنكوف. ومع أن سماع إطـلاق النار من بنادق الكلاشنكوف ليسـت بالحـدث الغريب في العـراق، إلا أن سماع تبـادل إطلاق النـار كان يعني شيئاً ذا خطـورة. فتناول يونغ عتاده وخوذتـه، والتقط بندقيته الرشاشـة، وتوجه إلى سطح مقر سلطـة التحالـف، حيث انضم إلى متعاقـدي بلاك ووتر الذين كانوا قـد أخذوا مواقعهم وبـدؤوا يردون على إطلاق النــار بالمثل. استقر يونغ خلف جدار إسمنتي حيث كان يراقب بفزع نـزول الرجال المسلحين مـن الشاحنات وهم يصوبون نـيران أسلحتهم نحو المبنى الحكومـي. وبحسب تدريبـه العسكري، صاح يونـغ تلقائياً، «بأمرك سيـدي، لقد حددت هدفاً معادياً وأطلب السماح بإطلاق النار». غير أنه لم يكن على السطح جندي آخر أعلى رتبة منه. وأعاد يونغ طلبه أكثر من مرة حتى صاح أحد المتعاقدين من بلاك ووتر موعزاً بإطـلاق النـار. وفي تلك اللحظة، لم تجبر الظروف المتعاقديـن الأمنيين على الدخول في معركـة قتاليـة وحسب، بل جعلتهم يتبـوؤون دور القيادة فوق جنـود المارينـز. وفيما بعد، صعِدت ثلة من الشرطة العسكرية الأمريكية وجندي آخر من المارينـز إلى السطح لمؤازرة المتعاقدين في القتال.

كان سطـح مبنـى سلطـة التحالـف المؤقتة علـى ارتفاع منـاسـب لإطـلاق النار على المحتشديـن وراء بوابة مجمـع المباني، غـير أن المستشفى العسكري القريـب من الموقع، والبنايـة السكنيـة متعددة الطوابق، وغيرهـا من المباني التي كانت قيـد الإنشاء، جعلت

مـن مجمع مبـاني سلطة التحالـف المؤقتة هدفاً مكشوفـاً لنيران القناصـة. وفي غضون ساعـات تمكن الرجال المسلحون على السطح مـن فرض السيطرة بنيران أسلحتهم على الجمـوع المحتشـدة في الأسفـل، في حين وجـه القناصة من بلاك ووتـر مناظير بنادقهم نحـو المسلحـين الذين كانوا يطلقون عليهم النار من نوافـذ المباني المحيطة على بعد عدة مئـات من اليـاردات. وتختلف تقديرات أعـداد عناصر المقاومة الذيـن هاجموا المجمع، ومـع ذلـك، نقلت التقاريـر أن أعدادهم كانـت بالمئات. كان يونغ يتمتـع بخبرة عملية في تحديـد الأهداف وإصابتها كان اكتسبها في السنوات التي أمضاها في هواية الصيد حول مدينتـه الصغيرة في ولاية كنتاكي. وقـد أتيحت له فرصة ممارسة هذه المهارة حين شرع في اصطيـاد الرجال الملتحين الذيـن يلبسون الجلابية وهم يتجهون واحداً تلو الآخر. وفي لحظة ما في أثناء المعركة، حلقت طائرتان مروحيتان من نوع آباتشي فوق المنطقة ولكنهما لم تطلقا رصاصة واحدة، ثم غادرتا المكان دون أن تهبطا في المجمع.

ثم صرخ نقيب في الجيش طالباً الإسعاف الطبي، ولم يكن على السطح أحد من فريق الإسعـاف، فسـارع يونـغ إليه ليتبين ما يمكنـه أن يفعل، ثم نزع يونغ مـا على النقيب من عتـاد وقص بعناية الملابس المحيطة بالجرح حول ساعده وظهره. وحين بدأ يونغ بتضميد الجـراح والإسعـاف الأولي، أخذ الرصاص يتطاير فوق رؤوسهـم، فصاح يونغ طالباً من المتعاقديـن تأمين تغطية ناريـة له ريثما ينقل الجندي الجريح إلى الطابق الأرضي، حيث قام البقية بإعداد غرفة للطوارئ على عجل.

وحين عاد يونغ إلى السطح، حمل معه ما يقارب السبعين كلغم من الذخيرة وصعد بها درج الطوابـق الأربعة للمبنـى، وكان لديه ما يكفي من الوقت لإمداد المتعاقدين من بلاك ووتـر بالعتـاد، ولكنه لم يملك الوقت للعـودة إلى القتال. أصيب المترجـم العربي المرافق لبلاك ووتر برصاصة في وجهه، وكانت دماؤه المتدفقة من الفتحة التي أحدثتها الرصاصة في فكه بحجم الدرهم تغطي الأرض. أدخل يونغ أصبعه في مكان الجرح متلمساً الشريان السباتـي حتى وجده وسده بأصابعه ليوقف النزيـف، ثم سحب المترجم بيده الأخرى من درعـه نحو الدرج، وفي تلك اللحظـة أصابت رصاصة كتف يونغ الأيسر فسقط على إثرها أرضاً، واستقرت الرصاصة على مسافة 3 سم من عموده الفقري، وأصابت شظية صغيره

عينـه اليسـرى ذاهبة ببعض بصـره. لكن يونغ الذي كان يتعرض لإطلاق نيران مكثف، وكان تحـت تأثير إفراز عـال من هرمون الأدرينالين، لم يتوقـف لمعاينة ما به من جراح. فنهض مرة أخرى وأمسـك بالمترجم وسحبه خلف تمديدات مكيّف الهواء وأعاد أصابعه إلى فتحـة جرح الرصاصـة في فك المترجم وضغط على الشريان لإيقاف النزيف، وسارع أحـد أفراد الإسعاف من بلاك ووتر بالضغـط المتتابع على صدر المترجم لتنشيط جهازه التنفسـي. ثم حمله يونغ ونزل به على درجات الطوابق الأربعة لتقديم مزيد من الإسعاف الأولي لـه قبـل أن يعود إلى السطح لمواصلة القتال. عاد يونغ الذي كان ينزف دماً ويرشح عرقاً للقتال، ولم يشعر بالإصابة في ظهره إلا بعد أن صاح به أحد رفاقه قائلاً له: إن عليه أن ينـزل إلى الأسفل لعلاج جراحه، وبعد أن نـزل إلى الطابق الأرضي شعر يونغ بالدوار وكاد يفقد وعيه.

وحـين سمع رجال الإسعاف أصـوات الطائرات المروحية قالوا ليونـغ: إنه بحاجة إلى الانتقـال علـى متن إحدى تلـك الطائـرات إلى مستشفى في بغداد. وحين خـرج يونغ إلى الساحـة، نظر إلى السماء فـرأى ثلاث طائرات مروحية تحوم حـول المكان ولكنها كانت سـوداء اللون وليست خضـراء. ومع استمرار تعرضهم للقصف واقـتراب نفاد ما لديهم مـن ذخيرة، قام متعاقدو بـلاك ووتر بطلب إرسال طائراتهـم المروحية الخاصة بعد أن أخفـق الجيش الأمريكـي في تلبية طلبهم بتقـديم الدعم. طارت المروحيـات الثلاث من بغـداد محملة بالتعزيزات والإمداد، وبعد تفريـغ حمولتها، نقلت الجرحى إلى المستشفى لتلقي العلاج اللازم.

ومع وصول إمدادات جديدة من الذخيرة، واصل المتعاقدون إطلاق النار على المقاومة. وجلس اثنان من الجنود الإسبان المسلحين بكامل تجهيزات المعركة خلف الجدار الإسمنتي المسلـح وكانا يضحكان ويتبادلان النكت. وقد كانـت السرية الإسبانية مكلفة بدور محدد بحفـظ السلام وأعطيت أوامر بعدم الرد وإن تعرضت لإطلاق النار؛ لذلك جلس الجنود الإسبـان يراقبـون ما يحدث دون المشاركـة فيما يجري. وكان في المـكان مندوب مبيعات للسيـارات المصفحة من شركـة تكساس آرمور اسمه ليونيل، وطلـب إلى ليونيل أن يعاون أحد القناصة المهرة واسمه كريد في تحديد أهدافه وكان مع كريد بندقية للقنص مزودة

بمنظار مقـرب. شاهد كريد قناصاً من المقاومة يطلق النار من نافذة المستشفى القريب من المجمع وحاول إصابته بدقة. ومع كل رصاصة يطلقها كريد، كان ليونيل ينكمش وينظر إلى سحابـة الغبار التي تبعث من اختراق الرصاصة للنافـذة. «إلى اليسار قليلاً». بووم! فيجفـل ليونيل ثانية مع إطـلاق الرصاصة. «إلى اليمين قليلاً». بـووم. «هنـاك المزيد من الأهداف». بووم!

صورت روايات مختلفة لشهود العيان تعرض مجمع المباني التابع لسلطة التحالف المؤقتة الـذي تعرضـ لهجوم مكثـف، إلا أن النـيران المهاجمة لم تكن كثيفـة إلى الحد الذي يمنع المتعاقدين من تصوير أفلامهم الخاصة بهم والتقاط الصور في أثناء المعركة. وأكثر أفلام الفيديـو التي التقطت تصـوّر وابلاً مستمراً من إطلاق النار سلطـه المحاصرون في المجمع باتجـاه المهاجمين تخلله رشقات متقطعة من الرصاصـ القادم من الطرف الآخر. ويظهر أحـد الأفلام متعاقداً أمنياً مستقلاً من بلاك ووتر اسمه «موكي سبيكولي» وهو يصيح، «يا إلهـي، كأننا في نزهة لاصطياد ديوك الحبش!» ويعنـي بذلك وجود عدد كبير من الأهداف بطيئة الحركة البادية للعيان، وأن المتعاقدين يقتلونهم واحداً تلو الآخر دون عناء.

ويتذكر متعاقد آخر من بلاك ووتر ذلك الأحد قائلاً: «حين تعرضت بلاك ووتر للهجوم في النجف في نيسان/ إبريل، لم يكن الأمر من الأسرار الكبيرة؛ بل إنهم صوّروا الحدث في أثنـاء وقوعـه. وقد كان كلايف يصور، وكان مع كريد كاميرا أخرى. كان الجيش في المكان، لكنهم لم يكونوا مستعدين. كان رجال بلاك ووتر متحفزين للمواجهة، حتى إن وكيل مبيعات شركة السيارات المصفحة كان يصعد الدرج وينزل مسرعاً ليحضر إمدادات الذخيرة. كنا نستخـدم بنـادق إم - 4، وكان هنـاك جندي من المارينـز يستخدم بندقيـة رشاشة، وكان قناصـة المقاومة يطلقون النار علينا من مبنى المستشفى. وقتلناهم واحداً تلو الآخر إلى أن ظهـرت طائـرات الآباتشي، لكن الآباتشي لم تطلق رصاصة واحـدة، واكتفوا بالتحليق فوق المكان، وتبين لنا فيما بعد أنهم أمروا بعدم التدخل في المعركة، وقد تمكن عشرون أو ثلاثون شخصاً من المقاومة من الدخول إلى ساحة المجمع، لقد كان التلاحم شديداً».

ويبدو أن الجيش الأمريكي كان لديه هموم أكبر مما كان يجري في النجف ذلك اليوم؛ إذ عمت البلاد انتفاضة مسلحة دفاعاً عن مقتدى الصدر، ثم استؤنف القتال في الفلوجة.

وحين حلقت طائرات الآباتشي فوق المكان لمعاينة الموقف عن كثب، فلا بد أن الجيش اقتنع بـأن قوة الحماية الموجودة في المجمع كافية لمواجهـة المقاومة التي تحاصرهم. وحدث أن وصلـت طائرة مروحية تابعة لسلاح البحرية إلى المكان مـع بداية المساء وهاجمت بعض الأهداف، غير أنها جاءت متأخرة بعد انتهاء أعنف المعارك في ذلك اليوم.

«استمـر القتـال طوال النهـار والليل، وحين تقـرأ التقارير الصحفية يخيـل إليك أن الجيش كان هو الذي يقوم بالقتال وأن رجال بلاك ووتر كانوا هناك مصادفة، لكن فريق الحراسة التابع لبلاك ووتر هم الذين كانوا في وسط المعمعة؛ حتى المدنيون منهم شاركوا في القتال. ولقد كان في المجمع ثمانية أشخاص يدافعون عن مجمع سلطة التحالف المؤقتة .... ثمانية فقط»، كما يؤكد المتعاقد.

ويتذكر ستيف أحد طياري المروحيات التابعة لبلاك ووتر قائلاً: «لم يساعدنا الجيش في أي شيء ... فشمرنا عن سواعدنا وأدينا الواجب». وكان ستيف قد عاد لتوه إلى المركز الرئيس للطيران في مقر بلاك ووتر في بغداد حين وصله نبأ رفاقه المتعاقدين المحاصرين في النجف وإصابة جندي من المارينز بجروح. وبدأ المتعاقدون بتحميل الطائرات المروحية الصغـيرة بالإمـدادات، وذهب ستيف إلى ضابط يعرفه من المارينـز؛ كي يستأذنه بأخذ جنـدي المارينز الجريح إلى مستشفى بغداد. وعلـى الرغم من موافقة القائد على عملية الإخـلاء، إلا أن ستيف تعرض للمساءلة والعقاب مـن وزارة الخارجية الأمريكية على ما قـام به، وقال ستيف بنبرة غاضبة، «أنقذت حياة الفتى، غير أن بعض الأشخاص لم يرق لهـم ما فعلته، وسعَـوْا إلى حرماني من مرتبي معاقبة على ما فعلت، فقلت لهم: افعلوا ما يـروق لكـم، احرموني من مرتبي، فلن يردعني ذلك». كان مـن المفروض أن يقوم ستيف بـأداء دور الطيار المـدني الذي يقدم الدعم لفريق الحراسة المرافق لبول بريمر، غير أنه حـين علم أن زملاءه بحاجة إلى المساعدة، شعر أنه لا خيار أمامه سوى تلبية النداء حتى وإن تطلب ذلك تجاوز الأنظمة والتعليمات.

وصـل قائد القـوات الأمريكية في العراق الجـنرال ريكاردو سانشيـز يرافقه الناطق الرسمـي باسم الجيش الأمريكي العميد مارك كميـت إلى موقع المعركة في اليوم اللاحق للإشادة ببسالة المقاتلين الذين تصدّوْا للمقاومة، وصرح كميت أمام الصحافيين بالقول،

«نحن نعلم أن مجموعة صغيرة من الجنود الأمريكيين، وجنود التحالف، والجنود الإسبان، والجنود السلفادوريين، خاضوا معركة في النجف يوم أمس من على سطح مجمع المباني التابع لسلطة التحالف المؤقتة واستمر القتال ثلاث ساعات ونصف الساعة. لقد نظرت في أعينهم ولم أستشعر وجود أزمة. إنهم يعلمون تمام العلم لماذا هم هنا. لقد خسروا ثلاثة جرحى. لقد شاهدنا الرصاص، وأغلفة الرصاص، وعبواته الفارغة على الأرض، وبصراحة شاهدنا أيضاً دماء رفاقنا التي لم تجف عن الأرض، وكانوا جميعاً في منتهى الثقة والشموخ».

لم يرد في تصريحات كميت أي ذكر عن أن المتعاقدين التابعين لبلاك ووتر هم الذين خاضوا أكثر القتال في المعركة، ولا أن الطائرات التابعة لبلاك ووتر هي التي قامت بتزويد المجموعة بالإمداد وأخلت الجرحى والمصابين، ويبدو أن الجيش كان يخشى ما كان يحدث- قوات أمن بلاك ووتر في مواجهة جيش المهدي في حين أن الجيش الأمريكي جلس يراقب الاشتباك مكتوف اليدين- بعبارة أخرى مرتزقة أمريكيين يحاربون ميليشيات مرتزقة عراقية. وفي حين كانت قواعد الاشتباك تخوّل المتعاقدين الرد على إطلاق النار دفاعاً عن أنفسهم، إلا أن واضعي تلك القواعد لم يتوقعوا أن يجد المتعاقدون أنفسهم في وضع يفرض عليهم الدخول في اقتتال يستمر عدة ساعات دون دعم خارجي. والنتيجة الثانية التي أصبحت واضحة من تلك الحادثة هي أن الجنود السابقين الذين يحملون رخصة في القتل لا يميلون إلى الفرار كما هو مطلوب منهم وبحسب ما تدربوا عليه، وما يتقاضَوْن عليه أجرهم، وبحسب ما تفرضه عليهم قواعد الاشتباك. بل وجدناهم متحفزين لإطلاق النار مراراً وتكراراً على جموع الناس التي تحيط بهم.

وفي اليوم اللاحق، تعرضت مجموعتان أخريان من المتعاقدين الأمنيين لإطلاق النار في مدينة الكوت، وقاتلتا قتالاً شديداً وخسرتا المعركة إلى أن جرى تأمين انسحابهما.

الكوت

تقع مدينة الكوت على بعد مئة ميل إلى الجنوب من بغداد على الضفة اليمنى من نهر دجلة، وهي مدينة غالبية سكانها من الشيعة، ويقطنها زهاء ثلاث مئة ألف نسمة،

وبذلـك تكون مماثلـة للفلوجة من حيث عدد السكان. استولت قـوات المارينز على الكوت في نيسـان/ إبريل من عام 2003، وبُدِّدَت بلطف محاولات رجال الدين الشيعة في المدينة نقـل السلطة إليهـم. ولا يكنُّ شيعة الكـوت أي محبة أو احترام لصـدام حسين ولا سيما بعـد أن بطش بهم إثـر الانتفاضة التي أعقبت حرب الخليج الأولى، ولكنهم أيضاً اتخذوا موقفـاً معادياً من المحتلين الأمريكيين. ومع ذلـك كانت الهجمات المسلحة التي تستهدف الأمريكيين قليلة لا تكاد تذكر. وحين نقلت قوات المارينز السلطة في المدينة إلى قوة حفظ السـلام المؤلفة من جنود بولنديين وأوكرانيين في خريـف عام 2003، لقيت تلك الخطوة استحساناً كبيراً وعدت نموذجاً يحتذى في تهدئة المدن في العراق.

أقامت سلطة التحالف المؤقتة مقرها في المدينة على ضفة نهر دجلة في تجمع للمباني قبالـة المدينة يضم فندقـاً خصص لاستخدام السلطة وحوله عـدد من المباني المجاورة. وكان بـول بريمر قـد أسس مشروع الحكـم الإقليمي، وكان يضم قسمـاً لجمع المعلومات الاستخباريـة، كما قامـت الوكالة الأمريكية للتنميـة الدولية بالتعاقد مـع مؤسسة آر تي آي (مؤسسـة المثلـث لأبحاث التطوير)؛ لكي تساعدها في تطويـر نظام للحكم المحلي في المنطقـة. وكان المنسق الحكومي مـارك إهرنينغتون مكلفاً بالتواصل مع الزعماء المحليين وتشكيـل حلقة وصل في جهـود إعادة الإعمار نيابة عن بول بريمر. وكان يرابط في المجمع بضعـة جنود أوكرانيـين وبولنديين، ولكن أكثرهم كانوا يقيمـون في قاعدة عسكرية تبعد مسيرة نصف ساعة بالسيارة.

كانـت شركة كيلوغ براون آند رووت مكلفة بمهمة إنشاء بعض المباني وتحصين الموقع، وقامـت تلـك الشركة بتكليـف شركة بريطانية تدعـى كنترول ريسك غـروب (مجموعة السيطـرة علـى المخاطر) بمهمة تقـديم الحراسـة لموظفيهـا. وفي 15 آذار/ مارس من عـام 2004، تولت شركة تربـل كانوبي مهمة تأمين الحماية لتجمـع المباني التابع لسلطة التحالـف المؤقتة كاملاً. وقامت الشركة بتوظيف تسعة وستين حارساً عراقياً من السكان المجاوريـن وزودتهم بالسلاح والعتاد وأجهزة الاتصـال. وعلى الرغم من المظهر الوردي لتجمـع مباني سلطة التحالـف، إلا أن الأمور لم تكن على ما يـرام في الكوت؛ إذ انتشرت

الملصقات والمنشورات في المدينة مدعية أن شركة آر تي آي هي منظمة تعمل لحساب الصهيونية ووكالة الاستخبارات المركزية. طالب زعماء المدينة بخروج مؤسسة آر تي آي وتوابع سلطة التحالف المؤقتة من المدينة ومعهم الجنود الأوكرانيون.

لم يكن في المدينة سوى عدد قليل ممن يعملون في وظائف، وعدد أقل ممن يملكون المال، وكانت سلطة التحالف المؤقتة تمثل رمز الاحتلال الأمريكي، وكانت نسبة لا بأس بها من السكان الشيعة قد نفد صبرهم من الوجود الأمريكي في البلاد، ونجح قادة مثل مقتدى الصدر في تضخيم مشاعر الغضب وخيبة الأمل لدى العوام من الناس، وأصبح مشهد المتظاهرين المنظمين أمام بوابات مجمع السلطة مشهداً معتاداً. لقد كان المتظاهرون يحملون أعلاماً وصوراً لمقتدى الصدر وخلفها مجموعات من الشبان ينفخون في الأبواق ويرددون شعارات مناهضة للأمريكيين. وقد اتخذ العراقيون ولا سيما الشيعة منهم التظاهر والاحتجاج رياضة وطنية. وكانت هذه التظاهرات عموماً سلمية، وكلامية، وجرى تجاهل أكثرها.

وفي الخامس من نيسان/ إبريل، كانت التظاهرات مختلفة. وبعد وقوع عدد من الهجمات المسلحة من أتباع الصدر، كما حدث في النجف في اليوم السابق، أعلن بول بريمر أن مقتدى الصدر هو شخص خارج على القانون ومطلوب للعدالة، وأن موجات الانتفاضة والتظاهر التي نظمها في الأيام الماضية لم تعد مقبولة ولن يسمح لها بالاستمرار. وأخيراً أعلنت سلطة التحالف المؤقتة عن المذكرة السرية للقبض على الصدر التي أصدرها قاضٍ عراقي في آب/ أغسطس من عام 2003، وهو إجراء استفز أنصار الصدر ودفعهم إلى استخدام العنف. اتصل الموظفون العراقيون الذين يعملون لدى آر تي آي صبيحة ذلك اليوم لتحذير المسؤولين في المجمع بأن المظاهرات التي ستجري في ذلك اليوم ستكون أكثر خطورة من سابقاتها، وأنه يحتمل شن هجوم على الموقع في تلك الليلة. وارتفع عدد المتظاهرين الذين كانوا بالمئات في الأيام السابقة إلى الألوف، وأصبح بالإمكان مشاهدة بنادق كلاشنكوف وقاذفات آر بي جي ترتفع فوق رؤوس الحشود المتظاهرة. وفي وسط المدينة، احتشدت ميليشيات المهدي وجموع الشباب الغاضب، وأغلقت مجموعة من المتظاهرين الجسر المؤدي إلى المدينة فوق نهر دجلة قرب

مجمع مباني سلطة التحالف، وطلب إلى منسق الحكومة من الجنود الأوكرانيين تأمين الموقع. وعلم إهرينغتنون في الحال أن ميليشيا الصدر استولت على مكاتب الحكومة المحلية، ومحطة التلفاز، والشوارع الرئيسة في المدينة. ووصلت تقارير تقول: إن أفراد الشرطة المحلية تركوا مواقعهم أفواجاً وفرادى، والتحق بعضهم بجيش المهدي بعد أن خلعوا زيهم الرسمي، وهذه التطورات كلها منذرة بالخطر.

وحين علم جون تيرنر رئيس فريق الحراسة التابع لشركة تربل كانوبي بهذه التطورات، أمر بوضع المجمع في حالة تأهب قصوى، وسرعان ما أدرك تيرنر أن لديه مشكلات أخرى عويصة- إذ تغيب أكثر الحراس العراقيين عن عملهم صبيحة ذلك اليوم، وتخلى آخرون عن مواقعهم، وترك بعضهم أسلحتهم وأجهزة الاتصال، وتلاشت من أمام عينيه قوة الحراسة التي يرأسها، فأسرع بالاتصال بمقر الشركة لإرسال تعزيزات أمنية وحراس جدد من الحلة، وأرسلت شركة كيلوغ براون أند رووت عمالها المحليين إلى بيوتهم باستثناء ثلاثة مترجمين، وأرسلت تعليماتها إلى الآخرين بالاستعداد للحصار. أخرجت قوارير الماء والذخيرة من صناديقها، وكدست في أماكن الملاذ الأخير. وجهزوا سياراتهم رباعية الدفع للانسحاب ووضعوا فيها حقائب «الهرب» التي تحتوي على ماء وزاد يكفي يومين. وطلب إلى الموظفين لبس دروعهم وخوذاتهم الواقية من الرصاص إن كانت معهم، وأعطي كل شخص تعليمات لمواجهة أسوأ الاحتمالات وذلك بالانسحاب إلى الفندق الذي هو أكثر المباني تحصيناً في المجمع. وتحصن موظفو كيلوغ براون آند رووت الأربعة، وموظفو آر تي آي الثمانية، ومعهم أربعة من مجموعة السيطرة على المخاطر، وستة متعاقدين أمنيين من شركة تربل كانوبي، وستة من موظفي سلطة التحالف المؤقتة، وأربعة جنود بولنديين، وخمسة وثلاثون جندياً أوكرانياً في المجمع وراحوا ينتظرون بدء الهجوم.

وحين انتهى إلى مسمع بول بريمر أن أحد المكاتب التابعة لسلطته قد وضع في حالة تأهب قصوى، قام بإصدار تحذيرات إلى الذين يرسلون هذه الاستغاثات الطارئة بأن يلطفوا من عباراتهم في مراسلاتهم. وردد منسق الحكومة هذا القلق حين وصف الموقف بأنه مجرد مشاجرة صغيرة مع نحو خمسين من الفتية المراهقين.

إلا أنـه ومـع بزوغ شمس النهـار، استمر تدفق الأخبار السيئـة: إذ أمهل جيش المهدي القـوات الأوكرانية وجميع جنود التحالـف والمحتلين في القاعدة العسكرية أربعاً وعشرين ساعـة للانسحاب مـن القاعدة وإلا واجهت هجوماً عليها. وأفـادت تقارير الاستخبارات أن المقاومة كانت تجهـز سيارة أوبل حمراء وأخرى بيضاء لاستخدامها في تفجير المباني والمنشـآت في تجمـع مبـاني السلطـة. وفي لحظة ما، انطلقـت سيارة مسرعـة نحو بوابة المجمـع لاختبـار الرد المحتمل على الهجـوم بسيارة ملغمة، ثم استـدارت وأعادت الكرة. وعلى الجانب الآخر من النهر، احتشدت مجموعة من الرجال بالقرب من مركز الشرطة وكانـوا يحملون قاذفات آر بي جي موجهة نحو مجمع المباني، وقد أثار هذا المشهد غضب الفـرق الأمنية؛ لأنهم أخبروا منسق الحكومة مـارك إهرنغتون مراراً وتكراراً بأن المجمع بحاجـة إلى حواجز إسمنتية مسلحة، أو جدران مضلعة لحماية الجانب المطل على النهر مـن نيران المقاومـة. ولكن الدبلوماسـي البريطاني المسؤول عن المجمـع لم يقدر الخطر وظن أن الأسوار الإسمنتية القبيحة كافية.

في الساعة 2:30 بعد الظهر، طلب مكتب بريمر مرة أخرى من شركة كيلوغ براون آند رووت أن تكف عن ذكر سلطة التحالف المؤقتة في مراسلاتها الإلكترونية، وبدأ الأشخاص المحاصرون في المجمع يشعرون بأن الأمريكيين الذين يقيمون بأمان في المنطقة الخضراء قـد تخلـوا عنهـم وأسلموهم ليلاقـوا مصيرهم، ولا سيمـا بعد أن كان ردهـم على نداء الاستغاثة هو أن طلبوا إليهم التوقف عن المبالغة في وصف الموقف.

وبعـد تمام الساعة الثالثة بعد الظهر، جمع مسؤول فريق تربل كانوبي في المجمع جون تيرنـر رجاله لإعطائهم موجزاً عن الوضع القائم. لا تبدو الأمور على ما يرام في الكوت. فقـد تخلت قـوات شرطة المدينة عن سيطرتها على المدينة لثـلاث مئة من عناصر جيش المهـدي الذيـن نهبوا السلاح والمعـدات الموجودة في المركز الأمنـي. ورفضت أقرب كتيبة تابعـة لقوات التحالف- جنود قوة حفظ السلام الأوكرانية والبولندية- مغادرة قاعدتها، ولم يبد لهم أنهم كانوا يتوقعون أي دعم من الجيش الأمريكي.

كانـت المجموعـة الصغـيرة من المدنيـين والمتعاقديـن الأمنيين وما بقـي من الجنود الأوكرانيـين والبولنديين مقطوعة عن أي منفذ يمكن الهـرب منه. وتحول موظفو كي بي

آر إلى جنود بعد أن وزع فريق تربل كانوبي الأمني عليهم السلاح والعتاد. ومع أن تيرنر أوضح لهم أن السلاح هو للدفاع عن النفس وحسب، إلا أنهم في واقع الأمر قد جندوا للدفاع عن القاعدة الأمريكية. واتخذ قرار بالانتقال إلى الفندق نظراً لاستحالة الدفاع عن محيط المجمع بتلك القوة الصغيرة.

ومع بداية غروب الشمس، شغلت مولدات الكهرباء لإضاءة المجمع، وبدا الجميع وكأنهم تحت الإقامة الجبرية- يأكلون الوجبات المغلفة الجاهزة في الفندق، وكانت الأسلحة معبأة، وكانوا ينتظرون إطلاق الرصاصة الأولى، ثم وقع المحذور، فبعد العاشرة مساءً هز انفجار كبير مباني المجمع مروعاً كل من كان فيه، ثم هدأت الأمور بعد ذلك، وبقيت العيون تترقب، والآذان مشدودة، إلا أنه لم يحدث شيء. فقد كان ذلك الانفجار مجرد طلقة تحذيرية.

ومع دخول الليل، تعاقب أعضاء فريق كي بي آر في رصد المكان ومراقبته، ولكن ساعات الليل مرت دون أن يحدث شيء.

وبعد انقضاء تلك الليلة التي لم تغمض فيها العيون، دخل اليوم السادس من نيسان/ إبريل وحضر سبعة عشر من الموظفين المحليين في شركة كي بي آر وشركة آر تي آي إلى البوابة للعمل كالمعتاد. وكانوا يعرفون سبب لبس الموجودين في المجمع الخوذات والدروع، ولكنهم مضوا في أداء عملهم حتى أمروا بالانصراف إلى بيوتهم قبل العاشرة صباحاً. وقبيل الظهيرة، أرسلت تربل كانوبي في الحلة خمسة عشر حارساً عراقياً لتعزيز الفريق المحاصر في المجمع. ونظراً إلى كون هذه القوة مؤلفة من عراقيين سبق لهم أن خدموا في الجيش العراقي، فقد كان مؤملاً منهم أن يكونوا أقدرَ على مواجهة الموقف من الحرس المحليين الذين تخلوا عن مواقعهم. وفي نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً، بدأ الموجودون في المجمع يسمعون صوت إطلاق نار آتياً من خلف النهر: فقد خرجت من القاعدة أخيراً قوة معززة من الجنود الأوكرانيين لمحاولة نزع سيطرة قوات الميليشيا عن الجسر، وازدادت وتيرة القتال، وبدأت أصوات إطلاق قذائف الآر بي جي تسمع من مكان قريب. وصوبت المقاومة بعض تلك القذائف نحو المجمع، ولكنها لم تكن دقيقة، فأخطأت الهدف وانفجرت على مسافة قريبة من المبنى.

كان علــى الجانب المقابــل للمجمع الذي يضم المبانيَ التابعــةَ لسلطة التحالف المؤقتة وراء النهــر منــزل تستخدمه شركة هــارت الأمنية، ومن سوء الحــظ أن هذا المنزل كان أمام خطوط المواقع الأولى التي اتخذها جيش المهدي. وكان في المنزل، غري برانفيلد من جنوب إفريقية، وهو شرطي سابق خدم في روديسيا وجنوب إفريقية ويتمتع بخبرة واسعة. وكان قــد وصل إلى المنزل فريق أمني من الشركة مكــون من أربعة متعاقدين قادمين من العمــارة؛ فقدم لهم غــري موجزاً عما يجري. ويتذكر غري أن إطلاق قذائف الآر بي جي على مجمــع مباني سلطة التحالف المؤقتة وقع بين وقت الظهيرة والثانية عشرة والنصف ظهــراً مع إطلاق نار متقطــع موجه نحو المجمع من موقع قريب مــن المنزل الذي يقيمون فيه. وبعد تمام الساعة الثانية عشرة والنصف، أطلقت قذيفة آر بي جي أخرى، واكتشف غــري ورفاقــه أن المبنى التابع لوزارة التربية والتعليم الــذي لا يفصله عن منزلهما سوى بنايتين من جهة اليمين كان يستخدم قاعدة لشن تلك الهجمات، إضافة إلى سطح المبنى الواقع خلفهم، والتقاطع الواقع في الجهة اليسرى.

اتصل غــري بالقاعدة العسكريــة الأوكرانية طالباً منهم المساعــدة في إخراج رجاله بأمــان، فقــال له الأوكرانيون: لم لا تتصــل بمبنى سلطة التحالف المؤقتــة القريبة منك؟ وأغلقوا سماعة الهاتف في وجهه، ثم اتصل غري بعد ذلك بالمقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة في بغداد فقيل له: إنهم سيضعون تقريره قيد الدراسة والمداولة ولكنهم لم يقدموا لــه أي مساعدة عاجلة، فجلس غــري برانفيلد وفريق هارت في المقاعــد الأمامية وراحوا يراقبون هجوم جيش المهدي على مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة.

كان جيشــ المهــدي يحاول التقدم عــبر الجسر نحو المجمع، غير أن القــوة الأوكرانية الصغــيرة حالت دون ذلك، وبــدأ إحراق المباني والسيارات، وتصاعــدت أعمدة الدخان الأســود في السماء. وطلب الجنود الأوكرانيون دعماً جويــاً، وحلقت الطائرات المقاتلة في سمــاء المدينة محاولة تحديد بعض الأهداف، ولكنها لم تجد هدفاً تصيبه دون المخاطرة بإيقاع أضــرار جانبية جسيمة. وفي نحو الساعة الواحدة ظهراً، تلقى مجمع دوائر سلطة التحالف المؤقتة أول ضربة مباشرة من قذائف الآر بي جي في الجانب الغربي منه، ورشق

من الجهة الشرقية بنيران البنادق، وفي داخل المبنى المحاصر، سارع الجنود الأوكرانيون والمتعاقدون الأمنيون من تربل كانوبي في أخذ مواقع مرتفعة في المجمع للدفاع عنه. وصعِد جـون تيرنر رئيس فريق تربـل كانوبي الأمنــي إلى سطح الفندق لمراقبــة الوضع وتوجيه إطلاق النار، واندلعت بعد ذلك معركة حامية.

وعلى الجانب الآخر من النهر، وجد الفريق الأمني التابع لشركة هارت نفسه محاصراً وسط مثلث من رصاص البنادق، والقذائف المتبادلة بين المقاومة والرجال المحاصرين في مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة، وبدأ غري برانفيلد بالتفاوض مع أعضاء ميليشيات جيشـ المهدي لتأمين مخرج آمـن لرجاله وإخلاء المكان، وقاسمه رجال الميليشيا بأنهم لا يريــدون منه شيئــاً وأن هدفهم هو مباني سلطة التحالف المؤقتــة، وعرضوا عليه مرافقة مجموعتــه إلى خارج المدينة. صعد غــري إلى الطابق العلوي لمشــاورة أصحابه ومناقشة الخيــارات المتاحة أمامهــم. لقد كان بإمكانهــم إغلاق المكان والانتظــار إلى حين انتهاء العمليــات القتاليــة معتمدين على صدق قــول الميليشيا بأنهم ليســوا هدفاً لهم؛ ويمكنهم قبول عرض الميليشيا بمرافقتهم وتأمين مخرج آمن لهم من المنطقة؛ أو أن ينتظروا حتى تصل قوات التحالف وتخرجهم من هذا المكان. لم يكن المتعاقدون يعلمون إن كان العرض الــذي قدمتــه لهــم الميليشيا، بتأمــين خروجهم عرضــاً صادقاً أم أنــه كان مجرد خدعة لإخراجهم من المكان المتحصنين فيه إلى مكان مكشوف. غير أنهم شعروا بالريبة لما رأوا أكثر مــن خمسين عنصراً من عناصر الميليشيا يحيطــون بالمنزل. وبقرار مشترك، وبعد الأخــذ في الحسبان صعوبة التنبؤ بأفعال جموع الغوغاء الغاضبة، والرد المتقاعس للجنود الأوكرانيين، قرر فريق هارت الانتظار في مكانهم.

وحــين نزل غري إلى الطابق السفلي لإخبــار المجموعة التي تجمعت أمام المنزل بنيته المكــوث مع رفاقه وعدم الخروج، وضــع بقية أعضاء الفريق أسلحتهم في وضع الاستعداد وأخذوا مواقع محصنة، غير أن أعضاء الميليشيا الذين انتابهم الغضب من فشل خدعتهم في إخراج الفريق، بدؤوا بالصراخ في وجه غري، ثم سمع بعد ذلك صوت سحب الأقسام من بنادق الكلاشنكوف استعداداً لإطلاق النار، وسمع إطلاق رصاصتين، تبعتهما رشقات من إطلاق النار اخترقت باب المنزل الذي كان مفتوحاً.

هرع غري إلى داخل المنزل وحاول إغلاق الباب، في حين ركض عراقي شاهراً سلاحه نحو غري، فبادره أحد المتعاقدين الأمنيين من فريق هارت برصاصة سقط على إثرها العراقي طريحاً على الأرض، ونادى أعضاء الفريق غري لمعرفة إن كان بخير، فسمعوه يقول: «لست بخير». فهب اثنان من المتعاقدين لمساعدته ولكنهما سرعان ما اكتشفا أنه في حالة تستعصي معها المساعدة، ومع أنه كان على قيد الحياة، إلا أنه أصيب إصابة بليغة في الجذع من رصاصة كلاشنكوف أطلقت من مسافة قريبة، وكان ينزف بقوة من عدد من الجروح في ركبته المتهشمة وأطرافه الأخرى. فكّر المتعاقدان أولاً بالخروج من المدخل غير الآمن وسحب غري معهما على السلم الحديدي إلى السطح، لكن، وقبل أن يشرعا في ذلك، ألقى أحد عناصر المليشيا قنبلة يدوية داخل المنزل، ورمى المتعاقدان بنفسيهما خلف خزان ماء حديدي للوقاية من الانفجار، وأتت الشظايا المتطايرة من القنبلة على ما تبقى من حياة غري، وانسحب المتعاقدان إلى السطح مرغمين على ترك جثة غري ملقاة على الأرض.

تطاير الرصاص داخل المنزل مع بدء وصول المزيد من عناصر الميليشيا وتطويقهم المكان، وبعد توقف وجيز لإطلاق النار، وصل أربعة من العراقيين الذين يعملون مع شركة هارت، يشك المتعاقدون أنهم انضموا إلى الميليشيا، إلى المنزل وبدؤوا يناشدون المتعاقدين بالنزول والخروج من المنزل. نظر الفريق الأمني إليهم وإلى الحشود من حولهم وهزوا رؤوسهم قائلين، «لن نخرج من هنا».

وعلى الجانب الآخر من النهر، كان مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة لا يزال تحت تأثير هجوم مكثف، وكانت قذائف الآر بي جي تنفجر بوتيرة سريعة، وقذائف الهاون تدك جدران المباني، ورصاص البنادق يتطاير بين المباني وله أزيز. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر كان المكان محاصراً من جميع الجهات، وكانت النيران تنهال عليه من كل اتجاه مع تقدم ما يقدر بمئات العراقيين نحوهم، ثم انطلقت صفارات إنذار الغارات الجوية بين أرجاء المجمع، وانتشر خبر بأن الدعم الجوي قادم، وحلقت الطائرات المقاتلة فوق المكان ولكنها لم تطلق رصاصة واحدة.

أوشكت الذخيرة على النفاد في المجمّع، وكان الموظفون المدنيون ينقلون صناديق الذخيرة ويعيدون تعبئة مخازن البنادق الرشاشة بأسرع ما يمكنهم. وطلب إلى أحد الموظفين أن يراقب الأهداف لأحد المتعاقدين في المبنى الشمالي الغربي؛ وأصابت قذيفة آر بي جي الجدار الخارجي أسفل منهم، وأصابت الرصاصات أكياس الرمال وجدران المبنى، وأطلق أحد العراقيين قذيفة آر بي جي فأصابت الجدار الخارجي قبل أن يصيبه أحد القناصة المتعاقدين برصاصة ويرديه قتيلاً. ومع تعرض المباني لنيران مكثفة ودقيقة، أصدر تيرنر أوامره لجميع الأشخاص بالانسحاب إلى الفندق، ووصلت رسالة إلكترونية إليهم من المقر الرئيس في الساعة 3:53 تقول: «نرجو إعلامكم بأننا نفعل كل ما بوسعنا، وقد قام قسم القوات المتعددة الجنسيات بإرسال طائرات مقاتلة، ولديهم بعض الأهداف المحددة لضربها، وإيقاع أضرار جانبية ليس له اعتبار في الوقت الراهن. كونوا مستعدين للاحتماء من الغارات».

لا جدوى. فقد حلقت الطائرات في سماء المنطقة، مجبرة المقاومة على الاختباء، ولكنها لم تطلق ناراً ولم تصب هدفاً. وفي الساعة 4:30 كان المتعاقدون في تعب شديد، وعرض عليهم الموظفون المدنيون أخذ أماكنهم على خط إطلاق النار الأول.

وفي الساعة 5:47 تعرضت مكاتب شركة كي بي آر ومكاتب تربل كانوبي لقصف جديد، وبدأت قذائف المدفعية تقترب أكثرَ فأكثرَ من الفندق. وانتقل الموظفون إلى الردهات الداخلية احتماءً من القذائف التي ازدادت حدتها ودقتها.

وفي الساعة 6:00، وحين بدا أن المقاومة كانت على وشك الاستيلاء على المكان، خيّم هدوء غريب على المجمّع، موجداً توقفاً غريباً في يوم طويل من العنف المتواصل، وتلقى جون تيرنر خبراً عن طريق الهاتف يفيد بأن الجنرال الأوكراني قد توصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار حتى الساعة التاسعة من صباح الغد، وأنه سيجتمع بقادة جيش المهدي في الساعة 7:30 مساءً. غير أنه بعد وقت قصير من وصول الخبر، استؤنف إطلاق النار بين ميليشيا جيش المهدي من جهة والجنود الأوكرانيين، والمتعاقدين الأمنيين من شركة تربل كانوبي من جهة أخرى على الطرف الشمالي من المجمع، واستمر إطلاق النار الحاد مدة خمس دقائق قبل أن يعود المجمّع إلى الهدوء مرة أخرى.

ظهـرت طائرتان مروحيتـان في السماء، وحامتا حول المنطقة عـدة ساعات. واستغل الرجـال المحاصرَون توقف القتال لإعادة التزوّد بالذخيرة، وتحصين مواقعهم الدفاعية. وأخرجـوا الوجبات الجاهزة مـن أغلفتها البنية، وتناولوا منها مـا يسكت جوعهم، وهم يلقمـون بنادقهم بمخازن جديدة من الرصاص. لم تكـن معدات الجنود الأوكرانيين، ولا أسلحتهـم على درجة مـن التطوّر عموماً. وكانوا غير مهيئين لخوض معارك ليليّة، وقام متعاقـدون من كي بي آر بتزويدهم بالكشافات الضوئية، وأجهزة اللاسلكي، وغيرها من المعدات، وقدمت لهم تربل كانوبي مزيداً من الذخيرة بعد نفاد ذخيرتهم.

وفي الساعة الثامنة، علمـت المجموعة المحاصرة في المجمّع أن الجنرال أوستروفسكي من الوحدة الأوكرانية لن يتفاوض مع الميليشيا كما كان مقرراً، غير أن وقف إطلاق النار سيبقـى سـاري المفعـول. ولكن بعد ساعة، سمـع إطلاق قذائف الآر بي جـي والمورتر من خلف النهر، واستمر القصف خمس عشرة دقيقة، وعلم جون تيرنر أن فريقاً من القوات الخاصـة يستعد للقيام بعملية إنزال في المجمع للدفاع عنه، وكان يفترض أن تقوم طائرة مروحيـة بانتشال المحاصرين في المبنى. واستمر التفـاؤل بالخلاص من هذه الأزمة عدة سـاعـات حتى جاء خبر جديد يقول: إن الجـنرال الأوكراني قد ألغى الخطة برمتها نظراً إلى الخطورة التي تكتنف هبوط الطائرات المروحية في المجمّع.

في غضون ذلك، وفي المنزل المحاصر التابع لشركة هارت، استمرت لعبة القطة والفأر مـع بـدء الميليشيا توجيه نيران أسلحتها إلى سطح المنـزل. ومع انتصاف اليوم، قام أحد أفراد فريق هارت بالاتصال بالمقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة، وبالقاعدة الأوكرانية القريبـة لإخبارهم بموت غري وبانسحابهم تحت وابـل الرصاص إلى سطح المبنى حيث يقبعـون تحـت الحصار، وناشدهم إرسـال قوة لإخراجهم من المـكان، وقام فريق هارت بتهيئـة سطح المبنى بما يسهّل عمليـة انتشالهم منه بالطائرة المروحية، ولكن بدا واضحاً مـع بدايـة المساء أنـه ليس هنـاك طائرة قادمـة، وبقي فريق هـارت مطوقـاً من جميع الجهـات، ويتعرضـ لنيران البنادق والرشاشـات، وأحياناً لقذائف آر بـي جي. ثم أرسل رجـال الميليشيا أحد الأشخاص إلى سطح المنزل المجاور لحـث المتعاقدين على الخروج مـن مخبئهم. وقالت ميليشيا المهدي: إنها تريد أخـذ الرجال إلى مركزها الرئيس حيث

ستـرافقهــم من هناك مجموعة أخـرى إلى خارج المدينة. وبدا أن هــذه خدعة أخرى، أو كمــين لأخذهم رهائن؛ لذلك حاول فريق هارت كسب مزيد من الوقت على أمل أن يرسل الأمريكيــون أو الأوكرانيون فريقاً لإخراجهم من هذه الورطة ثم دخلوا في مفاوضات بين أخذ ورد إلى ما بعد منتصف الليل إلى أن اتضح أن هذه الخدعة لن تستمر طويلاً؛ فقطع الرجــال محادثاتهــم مع الميليشيا، وبعــد دقائق قليلة عاد القصف كمــا كان وألقيت على السطــح قنبلتان يدويتــان. ولم يستمر هذا الهجوم الشرس سوى مــدة قصيرة ثم توقف حين حوّلت الميليشيا أسلحتها إلى الهدف الأكثر جاذبية على الضفة المقابلة من النهر.

اضطـرت ميليشيات المهدي إلى أخذ مواقع دفاعية بعد أن بدأت طائرة إي سي- 130 المزودة بالمدفعية بالتحليق في سماء المنطقة، وكان المحاصرون في المجمّع ينسقون مع طاقم الطائـرة تحديد الأهداف. وقــد تلقى المتعاقدون العاملون في تربـل كانوبي التدريب على عمليات الإسناد الجوي حين كانوا في الخدمة العسكرية، وجرى تطوير سلسلة الاتصالات بحيــث يحدد المتعاقدون الموجودون على الأرض المعلومات المتعلقة بالأهداف إلى الطائرة التــي تحلــق في السماء. وكانــت طائرة إي ســي- 130 تطير على ارتفاع ثابــت؛ لكي توفر مجــالاً ثابتاً لمدى مدافعها الرشاشة عيــار 105 ملم، ورشاشات عيار 200 ملم، وقاذفات القنابـل عيار 40 ملم. وتقــوم هذه الطائرات بتحديد أهدافهــا باستخدام منظار أمامي يعمــل بالأشعة تحت الحمــراء، ويعرض هذا الجهــاز الأشياء التي تنبعــث منها الحرارة كجسم الإنسان، والمحركات الدافئة على شكل أجسام بيضاء على شاشة تحديد الهدف.

طلــب الجيش أن يفتح كل الذين يحملون السلاح في المجمع نيران أسلحتهم لاستفزاز المقاومــة على الــرد لغايات تحديــد الأهــداف، وهي حيلة قديمــة لسحق العــدو. فتوجه الموظفــون المدنيون إلى سطح الفندق والفرحة تغمرهم بوصول المدافع الكبيرة لنجدتهم، ولكــن مارك إهرينغتون أمر الجميع باحترام وقــف إطلاق النار غير الموجود من الناحية الفعليــة؛ فانثنوا بخيبة الأمــل، غير أنه لم يكن ثمة داعٍ لأن يفتحــوا نيران أسلحتهم؛ لأن المقاومة بعد دقائق أطلقت العنان لكل ما هو بحوزتها من سلاح موجهة ضربة قاصمة إلى الفندق. وسرعــان ما كشفت تلك الخطوة عن مواقعهم خلف النهر، وكان طاقم الطائرة على اتصال مستمر مع المتعاقدين من شركة تربل كانوبي الذين تمكنوا من تحديد المزيد

مـن مواقع إطلاق النار بعد القصـف العنيف. وانتظر طاقم الطائـرة أخذ الموافقة على ضرب الأهـداف، ولكن الجنرال الأوكـراني رفض السماح للطائـرات العسكرية بضرب الأهداف بذريعة أن مواقع العدو كانت على أسطح المنازل والمدارس والمباني المدنية. وعلى الرغم من ذلك المنع، قامت الطائرة بتدمير عدد من الأهداف في الشارع المقابل للمجمع، وموقـع آخـر لإطلاق مدفعيـة الهاون. وفي السـاعـة 1:45 بعد منتصـف الليل، ظهرت في السمـاء طائرتـان مروحيتان من نوع آباتشي للحلول محل طائـرة إي سي – 130 وتقديم تغطيـة جوية متعاقبـة. وكان وجود هـذه الطائرات وحـده كافياً لإخماد نـيران المقاومة الموجهة نحو المجمّع.

اكتشـف تيرنر في تلـك اللحظة أن المقاومة كانـت تتنصت على اتصـالات اللاسلكي بوساطة الأجهزة التي كانت بحيازة الحرس العراقيين الذين تخلوا عن مواقعهم وانضموا إلى الميليشيـا. فجمع تيرنر رجاله لإعلامهـم شخصياً بالأخبار السارة التي وصلته– لقد أمـرت القيـادة الأوكرانية بوضع عشر ناقلات جند مدرعة مـع غطاء جوي وستصل قبل الفجـر لإنقاذ مجموعته المحاصرة ونقلهم إلى مكان آمـن. وأذهبت بهجة الخبر الشعور بالتعب والإنهـاك لدى الفريق، وراحوا يستعدون للرحيل. وفي الساعة 4:35 بعد منتصف الليـل، التأمت المجموعـة، وكان كل فرد منهم يحمل حقيبتـه، وسلاحه، ومعداته المهمة، وجلسوا ينتظرون بصبر نافد سماع أصوات الطائرات المروحية ومحركات ناقلات الجند التي تعمل بالديزل. ولكن جاء خبر يقول: إن الجنرال أوستروفسكي قد أمر بإلغاء عملية الإخـلاء بسبب خطورتهـا واحتمالات فشلهـا العالية. فقرر جون تيرنـر وقائد المجموعة الأوكرانيـة في المجمع مـن فورهما وضع خطتهم الخاصة للإخـلاء بما هو متوافر لديهم مـن موارد في المجمع؛ إذ يوجـد لديهم عدد من السيارات رباعيـة الدفع المصفحة وغير المصفحـة التابعـة للشركات الأمنيـة، ويمكن التنسيـق لتوفير تغطية جويـة مع طائرات الآباتشـي التـي تحلق فوق المـكان، وكان عليهمـا الاستعجال في وضع موعـد نهائي تحدد بالساعـة السادسـة صباحـاً للانطلاق؛ لأن جيشـ المهدي سيعود بعد صـلاة الفجر إلى نصـب مدافعه ورشاشاته، لبدء هجوم جديد على المجمّع، وهو أمر من المرجح أن المجمّع لن يتحمله بسبب نقص المؤن والإمدادات.

وحين سمع الرجال المتحصنون في المنزل التابع لشركة هارت بأن المجموعة الموجودة في مبـاني سلطة التحالف المؤقتة يعتزمون الخروج، قرروا وضع ثقتهم في اثنين من الموظفين عرضـا المساعـدة، فوضعوا على رؤوسهم أغطيـة الرأس التي يلبسهـا السكان المحليون، وتسلقـوا إلى سطـح المبنى المجاور، ثم نزلوا في العتمة واستقلـوا سيارة رباعية الدفع من نوع باجيرو، وقادوا السيارة ببطء خارج المدينة باتجاه مدينة العمارة مع بزوغ الفجر.

ومـع تمـام الساعة السادسة صباحـاً، كانت السيارات ممتلئـة، ومروحيات الآباتشي تحـوم حـول مبنى مجمع المباني التابعـة لسلطة التحالف المؤقتة. وتراصّ موظفو كي بي آر داخـل السيارات المصفحـة التابعة لشركة سي آر جي ولكن جرى نقل بعض الأشخاص مـن أماكنهـم بعد ظهور خلاف حول من سيحتل المقاعـد المفضلة في العربات المصفحة، ومـن سيركب في السيارات غير المصفحة، وفي الشاحنات العسكرية. وكانت الأفضلية في المقاعـد لموظفي سلطة التحالف المؤقتـة. وفي الساعة 6:15 صباحاً، كانت القافلة جاهزة للانطلاق واصطف رتل العربات والسيارات على الشارع الذي يؤدي إلى خارج المجمّع. كان الأوكرانيون في مؤخرة القافلة في عربات نقل الجنود المدرعة روسية الصنع من طراز بي تـي آر- 60، وتتقدم القافلة العربات المصفحة التابعة للشركات الأمنية، في حين توسطت القافلة السيارات غير المصفحة والشاحنات العسكرية. جلست المجموعة بأجمعها تنتظر منسق الحكومة حتى ينتهي من مكالمته الهاتفية.

كان مارك إهرينغتون، المنسق الحكومي لسلطة التحالف المؤقتة، يتحدث إلى الجنرال أوستروفسكي مناشداً إياه إلغاء قراره الأول وأن يرسل قوة دعم إلى المكان. وكان واضحاً أنـه لم يكن يرغب في التخلي عن موقعه، وأصدر إهرينغتون أمره إلى سيارة تابعة لشركة سي آر جي بإغلاق الطريق أمام القافلة. غير أن المتعاقدين الأمنيين رفضوا تنفيذ أمره. وكانـت المجموعة على حافة التمـرد حين بدأت تصرخ على المنسـق الحكومي طالبة إليه الركـوب. وأخيراً، أنذر نقيب من قـوة الحماية المنسق الحكومي بأنـه سيترك هنا وحده إن لم يركـب معهـم. فرضخ إهرينغتون للطلـب. وفي الساعـة 6:20 انطلقت القافلة عبر البوابـة الخلفية للمجمع، ولم تطلق رصاصة واحدة حين عبروا المدينة. وفي الساعة 7:40 صباحـاً دخلت القافلـة إلى قاعدة عسكرية تابعـة للقوات المتعـددة الجنسيات في مطار

الكوت العسكري. ونـزل الرجال من السيـارات شعثاً، غبراً، منهكين مـن التعب. وأعاد موظفو شركة كي بي تي و شركة آر تي آي الأسلحة إلى المتعاقدين من شركة تربل كانوبي وعـادوا مدنيين كما كانوا. لقد تخلت الولايات المتحدة عـن المركز الإقليمي التابع لسلطة التحالـف المؤقتـة في الكـوت، ولكن العاملين في المجمـع خرجوا بأمان، وبعـد مدة وجيزة نقـل الجيش الأوكـراني السيطرة على المدينـة إلى ميليشيات المهدي، ثـم عادت القوات الأمريكية لتنتزعها منهم بعد أيام قلائل.

فيمـا بعد، توالـت الاتهامات والإدانات. أصـرّ الأوكرانيون علـى أن قوتهم المؤلفة من ألـف وست مئـة وخمسين جندياً – وهي في المرتبة الخامسة مـن حيث العدد بعد القوات الأمريكيـة، والبولنديـة، والإيطاليـة، والبريطانية– الموجودة في العـراق، هي قوة لحفظ السلام وليس لخوض المعارك القتالية. ولهذا السبب كانت قدراتها محدودة في الرد على الهجمـات المكثفة، ولكن بعض المتعاقدين الذين حوصـروا في المجمع كانوا أكثر فظاظة، فوصف بعضهم القوة الأوكرانية «بالجبناء»؛ لأنهم «كانوا يملكون كل ما يلزمهم من الموارد والدعم لإخراجنا من هناك، ولكنهم لم يفعلوا». وأنحت سلطة التحالف المؤقتة بالمسؤولية علـى شركة كي بي آر على إخفاقهـا في وضع أكياس الرمال حول المجمع وإقامة المصدات الأسمنتية المسلحـة للحماية من صواريخ سكود، وعلى قصور نظام الاتصالات فيها. كما تعرضـ إهرينغتون لنقـد لاذع؛ لأنه عرّض حيـاة المدنيين والمتعاقديـن الأمنيين للخطر، وقـررت آر تي آي تخفيضـ التزاماتها وأعداد موظفيها في العراق بعـد الأحداث العنيفة في الكـوت. إن الهجـوم الذي وقع في الكوت هـو الهجوم الثالث علـى المتعاقدين الأمنيين في ربيـع ذلـك العام في العراق. ومع أن سلطة التحالف المؤقتة قد قللت من شأن الأحداث التـي وقعت في النجف والكـوت، وتجاهلتها وسائل الإعلام تجاهلاً كاملاً ولم تورد لها أي ذكـر، إلا أن بـلاك ووتر وغيرها من الفرق الأمنية الخاصة كانـت الشريك الأقوى عزماً من كثير من الشركاء في الحرب على العراق. وفي الأوقات العصيبة كان تحالف الفواتير[1] هم الذين ثبتوا في أماكنهم ودافعوا عنها، في حين وقف تحالف الطراطير[2] مكتوفي الأيدي يتفرجون على ما يجري.

1- coalition of the billing

2- coalition of the willing